

Sufi Elements as Reflected in Arab-American Diaspora Poetry: An Introductory Descriptive Study

الملاح الصوفية في الشعر المهجري الأمريكي: دراسة وصفية استقرائية

DR. MOHD ALAMGIR
الدكتور محمد عالمغير الندوي

Assistant Professor and Head of the Department of Arabic, Burdwan University, West Bengal, India

الكاتب هو أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة بردوان، بنغال الغربية، الهند

DOI: [10.55559/sjaes.v2i03.49](https://doi.org/10.55559/sjaes.v2i03.49)

Received: 30.08.2023 | Accepted: 25.09.2023 | Published: 05.10.2023

Electronic reference (Cite this article):

ALAMGIR, D. M. (2023). Sufi Elements as Reflected in Arab-American Diaspora Poetry: An Introductory Descriptive Study. *Sprin Journal of Arabic-English Studies*, 2(03), 16–30.

<https://doi.org/10.55559/sjaes.v2i03.49>

Copyright Notice:

© 2023 the Author(s). This is an open access article published by Sprin Publisher under the Creative Commons' Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) licence. <https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>

Abstract

This study titled "**Sufi Elements as Reflected in Arab-American Diaspora Poetry: An Introductory Descriptive Study**," explores the features of Sufism in Arabic diaspora poetry through exemplary analysis of selected poems by prominent immigrant poets who migrated to North and South America since the late 19th century. The study is divided into two sections: the first section examines the concept of Sufism and mysticism linguistically and terminologically, Sufi literature, the characteristics and dimensions of Sufism, the concept of immigration, and diaspora literature. Meanwhile, the second section, titled "A Study of Sufi Elements in the Diaspora Poetry," delves into Sufi elements according to the deductive-sequential approach. Among the Sufi elements explored in this study within immigrant poems are the pursuit of truth and existence, asceticism, seclusion, and alienation, Sufi renunciation, contemplation of existence and the universe, Sufi love: divine love, universal love, love of nature and the wilderness, the philosophy of transcendence and annihilation in the divine self, Sufi symbols. The study concludes with a summary and findings before presenting the bibliography and references relied upon in the research.

Keywords: *Arabic Diaspora Poetry, Sufi Elements, Diaspora Literature*

ملخص الدراسة:

هذه الدراسة المعنونة بـ "الملاح الصوفية في الشعر المهجري الأمريكي: دراسة وصفية استقرائية" تبحث عن ملامح التصوف في الشعر المهجري من خلال الدراسات النموذجية لبعض القصائد والأشعار لكبار الشعراء المهجريين الذين هاجروا إلى المهجر الأمريكي الشمالي والجنوبي منذ

أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وتنقسم الدراسة إلى مبحثين: المبحث الأول يبحث عن مفهوم الصوفية والتصوف لغة واصطلاحاً، والأدب الصوفي، وملامح التصوف وأبعاده، ومفهوم المهجر والأدب المهجري، في حين المبحث الثاني المعنون بـ "دراسة الملامح الصوفية في الشعر المهجري" يبحث عن ملامح التصوف وفقاً للمنهج الاستقرائي التتبعي، ومن هذه الملامح التي تتناول هذه الدراسة بعد تتبعها في القصائد المهجرية: الاستمرار في البحث عن الحقيقة والوجود، والتجرد والانعزال والاعتزاب، والزهد الصوفي، والتأمل في الوجود والكون، والحب الصوفي: الحب الإلهي والحب الكوني وحب الطبيعة والغابة، وفلسفة الوصول والفناء في الذات الإلهية، والرموز الصوفية، ثم تنتهي الدراسة بخاتمة القول والاستنتاج قبل تقديم فهرس المصادر والمراجع التي تعتمد عليها الدراسة.

كلمات مفتاحية: الشعر المهجري، الملامح الصوفية، الأدب المهجري، الشعر العربي

المبحث الأول

التصوف والشعر المهجري (الأمريكي)

قبل البحث عن ملامح التصوف في الشعر المهجري الأمريكي يتسنى للباحث البحث عن مفهوم الصوفية والتصوف والشعر المهجري وعلاقته بالتصوف كمدخل نقدي يساعد في فهم الموضوع وربط القيم الصوفية بالشعر ودراسة الدلالات الصوفية الموجودة في قصائد الشعراء المهجريين وتحديد مواطنها.

مفهوم الصوفية والتصوف:

التصوف هو ظاهرة تم تواجدها منذ سحيق الأباد في كل عصر ومصر. يقول الكاتب عبد الحكيم حسان: "التصوف ظاهرة شاعت في كثير من الأمم وفي مختلف أزمنة التاريخ؛ فقد عُرف عند الهنود، والصينيين والفرس واليونان، وعند اليهود والمسيحيين والمسلمين، وعرفت بعض ألوانه بين عرب الجاهلية، كما لوحظ في الأمم المتحضرة"¹.

ولا يريد الباحث الخوض في تاريخ التصوف، ولا يهتم له إلا تقديم مفهوم التصوف لغة واصطلاحاً. **التصوف لغة:** إن كلمة التصوف مأخوذ من "الصوف"، وفي اللغة لها عدة معانٍ، من أهمها الصوف المعروف من شعر الحيوانات، وهو لباس التواضع وعلامة التزهد والتقشف في الحياة. **التصوف اصطلاحاً:** هناك تعريفات عديدة للتصوف اصطلاحاً، حيث عرّفه النقاد والعلماء حسب آرائهم، ووجهات نظرهم، ومن ثم تعددت تعريفاته.

التصوف هو شكل جديد للعبادة، وضعه مؤسسي الصوفية، وتعتمد هذه الطريقة بشكل أساسي على زيادة العبادات في الدنيا، وترك لذاتها مثل الزواج، والاكتفاء بالقليل من الطعام الذي يساعد في بقاء الشخص على قيد الحياة. اللهم إلا أنه مع مرور الأيام حدث بعض التغيير في مبادئ الصوفية، وزادت بعض البدع، ولم يتم الاتفاق على مصطلح واحد لمعنى التصوف، والصفة الوحيدة التي يتفق عليها أصحاب هذه الطائفة هي التقشف. وقد مر التصوف بمفاهيم عدة، على سبيل المثال: التصوف بمعنى الزهد، وبمعنى الأخلاق، وبمعنى المجاهدة، والالتزام بالشريعة، والتصوف بمعنى الإخلاص لله تعالى، والتصوف بمعنى ترك التكلف والشكليات².

1. حسان، عبد الحكيم، **التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري**، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، (مطبعة الرسالة)، 1954م، ص 21.

2. جماعة من المؤلفين، **موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام**، الفصل الثاني: التعريف بالصوفية والتصوف لغة واصطلاحاً، المبحث الثالث: معنى الصوفية والتصوف اصطلاحاً، النسخة الإلكترونية، المنشورة على موقع المكتبة الشاملة، ج 6، ص 449، من خلال الرابط التالي: (<https://shamela.ws/book/32150/2950>)، تاريخ الاستفادة: 27 / 09 / 2023م.

فيقول معروف الكرخي معرّفًا للتصوف: "التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"³. وعرفه جنيد البغدادي بأن "التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات اللشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية، والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة"⁴. فالتصوف كما يراه الصوفية في عمومها هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهو في صلاة أو تلاوة أو ورد. أما الناقد عمر الدسوقي قال في تصدير له في كتاب "التصوف في الشعر الصوفي" لعبد الحكيم حسان: التصوف ظاهرة من الظواهر النفسية التي كان لها أثر كبير في الشعر العربي ولا سيما بعد أن اشتد اختلاطنا بالأمم المفتوحة إبان العصر العباسي، وكان في أول أمره إشاعا نفسيا خالصا يصدر عن نفوس ظاهرة أغلبها الوجد وتملكها الشوق للتخلص من ربة المادة والتقرب إلى الله موجد هذا الكون سبحانه"⁵.

وقد حصلت تطورات في مفهوم التصوف، وعندما دخل التصوف في القرن الثالث الهجري صار له مفهوم خاص، وهو أنه رياضة روحية تهدف إلى الوصول إلى الله والاتحاد به، وبدأت معتقدات الحب الإلهي، والفناء في المحبوب، وترتب على الفناء "الاتحاد" بذلك المحبوب، و"البقاء" به، ومنذ ذلك الحين أخذت المذاهب الصوفية المختلفة تظهر في ذلك القرن، وبدأ القرن الثالث الهجري بمذهب الحب الإلهي وانتهى بالاتجاه ووحدة الأديان على يد الحلاج من متصوفة القرن الثالث، وظهرت سلسلات متتابعة الحلقات تفضي الواحدة منها إلى ما بعدها"⁶.

ولا بد من الإشارة إلى أن معاني التصوف تنوعت حسب اختلاف ديانات المتصوفة ومذاهبهم. ومن ثم ظهرت أنواع من التصوف حسب الانتماء الديني، والمذهبي؛ فمثلا التصوف السني، والتصوف الشيعي، والتصوف الإسلامي، التصوف غير الإسلامي. فالتصوف السني هو: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"⁷. وقد ذهب إليه ابن خلدون وغيره من العلماء والمؤرخين. وتنوعت أسماء المتصوفة من الصوفية، وأرباب الحقائق، والفقراء، وال دراويش، وشكفتيه، وجوعية، والملامية أو الملامتية، وأما فيما يتعلق بنشوء المتصوفة في التاريخ الإسلامي فقد تضاربت أقوال العلماء منها: أن هذه التسمية عرفت قبل مجيء خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها أن الاتجاه الصوفي ظهر في 150هـ، ومنها أنه ظهر في 189 هـ، وأنه ظهر قبل المائتين من الهجرة، ومنها أنه ظهر بعد المائتين من الهجرة"⁸.

ومن هنا يتبين لنا أن للتصوف معاني مختلفة كما قد تم اعتباره باختلاف الزمان والمكان والديانة. وكلها تدور حول مفهوم واحد هو أنه طريقة لعبادة الله - سبحانه - قوامها الخروج من الملذات والتلطي بأخلاق الإسلام والأخذ بجوهر الشريعة الإسلامية وحقيقتها. أي التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان، مقام التربية والسلوك، مقام تربية النفس والقلب وتطهيرهما من الرذائل وتحليتهما بالفضائل.

3 . مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج 6، ص 449.

4 . مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج 6، ص 449.

5 . حسان، عبد الحكيم، التصوف في الشعر العربي، كلمة التصدير، ص 4.

6 . حسان، عبد الحكيم، التصوف في الشعر العربي، ص 46-47.

7 . مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ج 6، ص 449.

8 . قسم الدعوة والدراسات الإسلامية، التعريف الصوفية لغة واصطلاحًا، مقال منشور على منتدى العالم الإسلامي، من خلال الرابط التالي:

(http://islamicaleasa.blogspot.com/2012/01/blog-post_295.html)، تاريخ الاستفاضة: 27 / 09 / 2023م.

الأدب الصوفي:

الأدب الصوفي هو البوابة السحرية التي عبر المتصوفة منها أجادوا وأبدعوا من خلالها. هو الأدب الذي أنتجه المتصوفة والزهاد بمختلف اتجاهاته الدينية والفلسفية حيث يتكون الأدب الصوفي من أعمال بلغات مختلفة تعبر عن أفكار الصوفية وتدافع عنها. وهذا النوع من الأدب يتميز بالغموض لأنه يتجاوز اللغة الحسية، والروحانية، والتلميح، والإيحاء. وللأدب الصوفي أنواع منها: الرسائل الحجازية والأمجاد النبوية، والأوراد، والتأملات، والأحزاب، والرسائل الإخوانية، والحكم، والحكاية الكرامية هذه الأنواع توجد في النثر، وأما الشعر الصوفي فيتنوع إلى شعر الزهد، وشعر التوسلات والابتهالات، وشعر التصوف الفلسفي، والتصوف السني وما إلى ذلك.

ملاحم التصوف وأبعاده:

التصوف يتمثل في صور كثيرة فيكون في الحب ويكون في الولاء، والسياسة، كذلك عندما تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان. كما يتمثل الأدب الصوفي في ثيمات الزهد، والمودة والولاء، والأخلاق، والسلوك، والطريق والرحلة، والاعتزال والانعزال، والوحدة، ومجاهدة النفس، والصراع بين العقل والقلب، وفلسفة الوصول والفناء، وحدة الوجود، والشهود، والرضى والطمأنينة القلبية، والمناجات والابتهالات، والرموز الصوفية مثل النار، والخمر، والمرأة، والعشق الإلهي، والعشق الكوني، والحب، وحب الطبيعة ورموزها مثل الغابة، والتغني بجمالها، والارتباط بالنفس، والتأمل، والحزن، والنزعة الإنسانية، والروحية، ورفض المادة، وتكشف الحياة، وتمجيد الروح والازدراء بالجسد وما إلى ذلك. ويتكون من كل هذه الصور ملاحم التصوف في الأدب الصوفي. سوف يبحث هذا المقال عن هذه الملاحم في الشعر المهجري الأمريكي.

مفهوم المهجر والأدب المهجري:

نزحت نخبة من أبناء العرب من لبنان وسوريا والبلاد المجاورة إلى القارات الأمريكية شمالها وجنوبها، إما فراراً من جور الساسة أم لأجل كسب المال في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي، وأنشأوا الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية والجمعيات الأدبية والشعرية الأخرى وأقاموا النوادي والحفلات، وأنشأوا الصحف وأصدروا المجلات وكتبوا القصص والروايات والمقالات وقرضوا الأشعار وأخرجوا الدواوين الشعرية؛ فعُرف هذا النوع من الأدب المهجري الأمريكي. والشعر الذي أنتجه هؤلاء الشعراء العرب في ديار الغربة عُرف بالشعر المهجري.

فالأدب المهجري نثره ونظمه هو أدب كسب فيها المهاجرون حرية الفكر، وحرية التعبير عنه وربحوا حرية الشعور والعاطفة في البوح بهما. والمهجري عربي الميلاد والنشأة بروحانية الشرق وإنسانيته، والشعر المهجري شعر يمتزج به حضارتان والتقى فيه أصالة الشرق بفكر الغرب. وهو وأدب عربي راوح بين جزالة اللفظ وبين رصانة الأسلوب وحلاوته وكانت له روعته في حسن الأداء، وجمال الصياغة ولطف التأتى. ينقسم الأدب المهجري بين المهجر الشمالي والجنوبي؛ فالمهجر الشمالي يتميز بنثره ونظمه على السواء، وله صوت أعلى من صوت المهجر الجنوبي، حيث قام المهاجرون إلى الشمال بإنشاء جاليات عربية عديدة ونوادي أدبية مختلفة؛ فصدرت أول جريدة لهم في نيويورك عام 1888م وهي "كوكب أمريكا" لأولاد أربيلي وبعدها جريدة "العصر" لنعوم مكرزل عام 1894م، ثم جريدة "الأيام" ليوسف نعمان المعلوف عام 1897م وتبعها عام 1898م جريدة "الهدى" لنعوم مكرزل⁹. ولما وصل عبد المسيح حداد إلى نيويورك أسس جريدة "السائح" عام 1912م، وجعل من مكتبها ندوة لأهل الفكر والقلم ومنه انطلقت حركة النهضة الأدبية وفيه تأسست "الرابطة القلمية" عام

⁹. كوكن، يوسف، أعلام النثر والشعر في العربي الحديث، الجزء الثاني، دار حافظة 1980م، ص 2.

1920م واشترك في تحريره جبران ونعيمة وأبو ماضي وعريضة ورشيد أبوب وفيليب حتي ووسيم كاتسفليس وندرة حداد وأمين مشرق والمطران وأنطونبوس بشير وجيب كاتبة وأمثالهم ظلت هذه الجريدة تخدم العلم والأدب لخمس وأربعين عاما. ثم أصدر نسيب عريضة مجلته "الفنون" في سنة 1913م كانت أول مجلات المهجر الراقية التي رقت راية النهضة العربية الأدبية ونشرت بواكر أدب جبران ونعيمة¹⁰. وقام نجيب دياب بإصدار "مرآة الغرب" التي عمل فيها إيليا أبو ماضي لأعوام ثم ترك العمل الماجور وأنشأ لحسابه عام 1929م مجلته "السمير" الشهرية واتخذ مكتبا له في شارع واشنطن في حي السوريين فخدم العلم والأدب إلى أن توفي في سنة 1957م. والمهجر الجنوبي ابتداء بوصول قوافل المهاجرين العرب إلى البرازيل في جنوب أمريكا، فتطور الأدب العربي في الجنوب كما تطور في الشمال هزيلا ضئيلا ولكن قيض للأدب في البرازيل أن يلحق بقوافل المهاجرين الأولى قافلة جديدة ارتفع مستواها العقلي والثقافي، وفي طليعتهم كان المعلم نعمة يافت (1860-1923) عميد آل يافت الذي وصل إلى سان باولو عام 1893م، وكانت عنده شهادة جامعية فعكف على رعاية الأدباء وحمل أبناء الجالية على احترامهم اقتداء به ووصل في العام نفسه رزق الله حداد إلى ربودي جانير وأنشأ مع أشقائه الثلاثة محلا تجاريا رسخ وازدهر واتخذ تلك تعيينه قنصلا عاما للدولة العثمانية وينجلي لنا أن الأدب المهجري هو الذي نطق به هؤلاء المهاجرون في هذه الأرض البعيدة "الأدب المهجري" وهو أدب حديث النشأة كما قال عبد المنعم خفازي: "ولد الأدب المهجري مع القرن العشرين ونما وترعرع حتى اليوم ومن أعلام الأدب المهجري أمين الريحاني، ثم جاء جبران وميخائيل وسواها، ممن نطق أدبهم باسمهم وعبر عن مشاعرهم، وصور عواطفهم ووصف غربتهم وحنينهم والبلاد التي أقاموا فيها"¹¹

وكذلك لعبت مدارس أدبية وشعرية في المهجر الأمريكي وحملت التجديد ودعت إليه ومن أهمها الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية وسنذكرهما في الباب الثالث بالتفصيل والآن نريد أن نشير إلى نطفة مهمة.

الرابطة القلمية أنشئت في نيويورك عام 1920م ومؤسسها هو الأديب المهجري الكبير عبد المسيح حداد صاحب جريدة السائح المشهورة، ومؤلف كتاب "حكايات المهجر" وأنشأ جريدة "السائح" عام 1912م وكان يكتب فيها جبران والريحاني ورشيد وأيوب وغيرهم ويعملون بروح الأسرة الواحدة ثم استجابوا الدعوة صاحب "السائح" وأنشأوا الرابطة القلمية عام 1920م التي يعد من أعلامها من الشعراء: نعمة الحاج، وعبد المسيح حداد ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وأسعد رستم وإيليا أبو ماضي ومن كتابها من الشيوخ: نعمة الحاج ومن أعلامها الراحلين: جبران ورشيد أبوب ورزق حداد ونسيب عريضة.

أما العصبة الأندلسية فقدم تأسيسها عام 1932 تحت إشراف الشاعر ميثال المعلوف وترأسها الشاعر القروي ثم شفيق المعلوف الشاعر، ومن أعلامها: إلياس فرحات وفوزي المعلوف ورياض المعلوف وشكر الله الجر.

عندما برزت حركة التجديد التي تزعمها مطران في الشعر العربي منذ مطلع القرن العشرين وحركة البعث الأدبي الأمريكي المتجاوبة مع خير ما في أوربا من الأدب نشأ الأدب المهجري متأثرا بهاتين الحركتين، وظهر الأدب المهجري في طابعه الإنساني ذي الشخصية القوية الحرة وأدباء المهجر المثقفون.

¹⁰ كوكن، يوسف، أعلام النثر والشعر في العربي الحديث، ج 2، ص 2.

¹¹ خفازي، عبد المنعم، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، الجزء الأول، بيروت، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1900م، ص 325.

هذه جولة سريعة في عالم الأدب المهجري نظمه ونثري، منذ بدايته حتى تطوره، ويطلق على الشعر الذي أبدعه الشعراء العرب في الغربية الأمريكية بالشعر المهجري الأمريكي، وقد اتسم هذا النوع من الشعر بروحانيته الشرقية وقوالبه العربية، وتنعكس من خلالها صورة الشرق من شتى جهاته، ومن هذه الجهات "التصوف"، ومن ثم يجد القارئ ملامح التصوف في الشعر المهجري بشكل بارز نتيجة البيئة في الغربية وتأثير الثقافة الشرقية ذات النزعة الصوفية في الشعراء، كما سيقوم الباحث بدراسة تلك الأبعاد الصوفية ولامح التصوف في الشعر المهجري في الصفحات القادمة.

المبحث الثاني

دراسة الملامح الصوفية في الشعر المهجري

قد تناول الشعراء المهجريون شتى ملامح التصوف، وقصائدهم مليئة بالمفردات والمدلولات الصوفية، وآرائها ومذاهبها واتجاهاتها، وعبرهؤلاء الشعراء صوراً صوفية متنوعة؛ الحب الصوفي، والرموز الصوفية، والتأمل، والتجرد، والاعتزاب، والانعزال، والوصول والفناء في الذات الإلهية، والزهد والتفشف في الحياة، والصراع بين العقل والقلب، والمناجات والابتهالات، وحب الطبيعة، والحب الإلهي وما إلى ذلك. سوف يحاول الباحث دراسة بعض هذه الملامح في قصائد الشعراء المهجري الأمريكي الشمالي والجنوبي على النحو التالي:

الاستمرار في البحث عن الحقيقة والوجود:

الصوفي لا يقر له قرار، وهو دائماً يستمر في رحلته وطريقته لأجل الوصول إلى الذات الإلهية للحصول على المعرفة واليقين الكامل، وفي هذا الطريق نجده مضطرباً وتائهماً، فقد نرى هذه الحيرة والتساؤل والحيرة عند الشاعر القروي، في الأبيات التالية:

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ عَكْسَ مَا تَنْظُرُونَهُ وَتَكَرَّهُ نَفْسِي كُلَّ مَا تَعَشُّفُونَهُ
وَدَلِّكَ أَمْرٌ وَاضِحٌ تَعْرِفُونَهُ فُقُولُوا فُلَانٌ قَدْ دَاعَ جُنُونَهُ¹²

فالشاعر مثقل بتبعات الحيرة والقلق من حزن وشقاء غير أن كل هذا يهون من أجل الوصول والمعرفة والفوز بالوصول والمشاهدة، وعن طريق هذه الإرهاصات والبدايات الصوفية عرف شاعر المهجر طريقه المأمون فأخذ يخطو خطواته وتعتربه أحواله من الحيرة والقلق حيث يقول الشاعر نسيب عريضة بإظهارها صوفياً سالكا:

يا رَفِيقِي عَلَى طَرِيقِ الْحَزَانِي	سِرُّ بِنَا فِإِنَّ الْقَضَاءَ أَقْصَى مَدَانَا
سِرُّ بِنَا نَقَطُ شَوَاطِئِ	قَبْلَ أَنْ تَفْتَى اللَّيَالِي
طَالَ هَذَا الدَّرْبُ وَالْعُمُ	رَ قَصِيرٌ فِي الْمَجَالِ
قد تعبنا وضللنا	في أحاديث المحال
نَحْمِلُ الحُزْنَ شِعَاراً	لِشِقَاءٍ وَاحْتِمَالِ
وَكُنْمَا عَنِ الْوَرَى شَكْوَانَا	كَيْفَ نَشْكُو وَلَا سَمِيعَ سَوَانَا ¹³

التجرد والانعزال والاعتزاب:

هو طريق من طرق الصوفية، للتخلي عن أمور الدنيا والسمو بالروحانية إلى حقه تعالى، والصوفي يميل إلى العزلة والانفراد والتجرد عن الأباطيل والوحشة من الناس؛ وفي العزلة والخلو يمكن للإنسان أن

¹². الخوري، رشيد سليم، ديوان القروي، الجزء الأول، بيروت، دار المسيرة، 1978م، ص 423.

¹³. نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018م. ص 220.

يتصل بربه وأن يتم صفاء النفس وخلاصها لربه فيأخذ الصوفي في الترقى والكشف لأن العزلة تمده بالغذاء الروحاني وبالانفراد بالله والتأمل في أسراره على أن هذا الشعور المحب للعزلة والراغب فيها لا يتأتى إلا عن طريق الشعور بالغربة والاعتراب، والعزلة الروحية العميقة التي تقطع وشائج الصلة بينه وبين مجتمعه وأفراده فيشعر بعزلته عن العالم وعزلة العالم عنه والعزلة سمة الصوفي البارزة تميزه عن الإنسان العادي، كما يقول عبد الكريم القشيري: "فالخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من أمارات الوصلة ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة"¹⁴، وقد عانى المهجري أشد المعاناة نتيجة الشعور بالغربة الروحية حتى سئم الشاعر إيليا أبو ماضي عن الحياة، وفي ذلك يقول:

سَمِمْتُ نَفْسِي الْحَيَاةَ مَعَ النَّاسِ
وَتَمَشَّتْ فِيهَا الْمَلَالَةَ حَتَّى
وَمِنَ الْكَذِبِ لَا بِسَاءَ بُرْدَةَ الصِّدْقِ
وَمِنَ الْفُحِّحِ فِي نَقَابٍ جَمِيلٍ
وَمَلَّتْ حَتَّى مِنَ الْأَحْبَابِ
ضَجَرَتْ مِنْ طَعَامِهِمْ وَالشَّرَابِ
وَهَذَا مُسْتَرَبِلًا بِالْكَذَابِ
وَمِنَ الْحُسْنِ تَحْتَ أَلْفِ نِقَابٍ
وَاسْتَحَقَّتْ بِكُلِّ مَا لِلشَّبَابِ¹⁵

والانعزال وخلوته بنفسه هو الدافع الرئيسي للاعتراب الروحي، والشاعر القروي يريد الانعزال لأجل الاعتراب الروحي كما نرى في الأبيات التالية:

مَا الْبَرَازِيلُ مَهْجَرِي
إِنَّ نَفْسِي غَرِيبَةٌ
أَنَا مَا دُمْتُ فِي التَّرَى
مُهْجَبِي كُلُّهَا جَوَى
أَبْدَأُ أَنْتَكِي النَّوَى
لَيْسَ لُبَانُ لِي حَمَى
تَشْتَكِي الْبُعْدَ فِيهِمَا
وَبَعِيداً عَنِ السَّمَاءِ
كَبِدِي كُلُّهَا حَنِينُ
دَأْبِي النَّوْحُ وَالْأَيْنِ¹⁶

الانعزال والوحدة وسيلة لتحقيق الكشف والرؤى لدى الشاعر المهجري أبي الفضل الوليد، كما نجد في قصيدته "الرؤيا النبوية" حيث عبر فيها عن غربته الصوفية وعزلته الخلوية التي تنقله إلى درجة صوفية سامية، فيقول:

فروحي مع الأرواح في دار أنسها وجسمي مع الأجسام في دار وحشتي
غريباً أنا بين الذين أحبهم وأبغضهم والموت أخرُ غرْبتي
إلى الملاء الأعلى أجنُّ لأنني
عن الملاء الأدنى أنزَّه رفعتي

17

العزلة هنا تبدو وسيلة لتحقيق الكشف والرؤى وتوصل الشاعر إلى درجة صوفية أعمق. لكن الشاعر ليس مضطراً للانعزال ولم يجبر في اللجوء إلى العزلة، وإنما رضي لنفسه بالعزلة اختياراً واقتناعاً على أنها الحل الأمثل، والانعزال هو الطريق الأمثل للكشف والوصل، كما نجد هذه الملامح عند الشاعر الباكي الدرويش رشيد أيوب:

عندما أجلسُ في الليل البهيمِ
ونجومُ الأفقِ فوقِي سَابِحَاتُ
في فضاءٍ عندهُ النفسُ تَهيمُ
خَلِيَانِي

¹⁴ القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق الدكتور عبد الحلیم محمد، والدكتور محمود بن الشرف، دار المعارف، 1995م، ص 176.

¹⁵ إيليا أبو ماضي، الجداول، الطبعة التاسعة، بيروت، دار العلم للملايين، 1972م، ص 48.

¹⁶ الخوري، رشيد سليم، ديوان القروي، ص 348.

¹⁷ أبو الفضل الوليد، ديوان أبي الفضل الوليد، قطر، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م، ص 361.

فأنا دونَ المَلَأ شَأني عَجِيبٌ
ليس يحلو لي سِوَى اللّيلِ الطويلِ
وأنا في هذه الدنيا غريبٌ
خَلْيَانِي¹⁸

فالانعزال يتناسب مع الدعوة إلى التحرر الروحي والصفاء النفسي، والتزكية يتم من خلاله عملية الاتصال والتوحد مع الحق تعالى.

وأما الاغتراب فهي من إحدى ظواهر المتصوفة، والغربة حال من أحوال المتصوفة، وقد سمّي المتصوفة بالغرباء لخرُوجهم عن الأوطان، ويعتبر الصُوفي¹⁹. وقد تحدث الشاعر المهجري عن هذه الحالة، بكونه غريباً عن الوطن، وراء البحار السبعة. وعلى سبيل المثال يعبر جبران خليل جبران عن غربته الصوفية في قصيدته "البلاد المحجوبة" وهي تعبير رمزي عن حالة الصوفي وغربته وبحثه الدؤوب عن عالمه المنشود، وأسنه المفقود، فيخاطب جبران نفسه، ويقول:

هَذَا هُوَ ذَا الْفَجْرِ فُؤُومِي نَنْصَرِفُ
عَنْ دِيَارِ مَا لَنَا فِيهَا صَدِيقُ
مَا عَسَى يَرْجُو نَبَاتٌ يَخْتَلِفُ
زَهْرُهُ عَنْ كُلِّ وَرْدٍ وَشَقِيقُ
وَجَدِيدُ الْقَلْبِ أَنِي يَأْتَلِفُ
مَعَ قُلُوبِ كُلِّ مَا فِيهِ عَتِيقُ²⁰

في هذه الأبيات يرى القارئ غربة روحية نفسية، وفيها دعوة إلى التحرر الروحي والصفاء النفسي والتهارة القلبية كما ظهر في أشعار جبران خليل جبران. والشاعر فوزي المعلوف أيضا يعالج هذه الثيمة الصوفية إذ يرى نفسه غريبة في العالم في قصيدة "على بساط الريح"²¹ ويرى أنه في لا يعيش في الأرض وإنما يتحلق في الفضاء.

الزهد الصوفي: الشعراء المهجريون رفضوا طغيان الحياة المادية الموجودة في بلاد الغرب ونفروا من مظاهرها فهم ترفعوا بأنفسهم عن الفكر المادي الذي يرهق أرواحهم ولذلك حوّلوا الحياة من المجتمع إلى غابة والبشر إلى وحوش، لذا أنكروا الغنى والثراء والمال لأنها أشياء فانية، فيقول نسيب عريضة:

بُنِسَ الْغَنَى كَغُبَارِ دُنْيَا لَيْسَبَ بِبُوقِيهِ الْمَدْرِي
مَاذَا يُفِيدُ الْمَالُ مِنْ يُطَوَى غَدًا فِي قَاعِ قَبْرِ؟
أَنَا الْغَنِي بِحَمْدِ رَبِّي رَغْمَ إِمْلَاقِي وَعَسْرِي
مَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا يُخَيَّلُ وَالْعَيَانُ سِرَابٌ قَفْرٍ²²

ومن هنا يبدو لنا أن نسيب عريضة كان شاعرا زاهدا ومنعزلا عن الناس وعن ملذات زائلة. وكذلك كان أبو ماضي زاهدا في الدنيا ومجردا قلبه من متعتها وملذاتها قائلا في الأبيات التالية:

أَبِي صَرَفْتُ عَنِ الطَّمَاعَةِ وَالْهَوَى قَلْبِي وَلَا ظَفْرٌ لِمَنْ يَطْمَعُ
فَكَأَنِّي الْبُسْتَانُ جَرَّدَ نَفْسَهُ مِنْ زَهْرِهِ الْمَتَنَوِّعِ الْمَتَطَوِّعِ
لِيَحْسَ نُورَ الشَّمْسِ فِي دَرَاتِهِ وَيُقَابِلُ النَّسَمَاتِ غَيْرَ مُفْتَعِ
وَكَأَنِّي الْعَصْفُورُ عَرَى جِسْمَهُ مِنْ رَيْشِهِ الْمَتَلَصِّقِ الْمَتَلَمِّعِ²³

فالزهد ظاهرة صوفية والصوفي لا يشغل قلبه بملذات الحياة ومتعتها، وإنما يميل إلى التقشف والتزهد، كما يقول أنيس المقدسي: "والصوفية متفقون على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام (النحول)،

18. رشيد أيوب، الأعمال الشعرية الكاملة، (ديوان الأيوبيات)، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018م، ص 30.

19. حنفي، عبد المنعم، المعجم الصوفي، القاهرة، دار الرشاد، 1997م، ص 183.

20. جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، القاهرة، دار الفرجاني، 1984م، ص 285.

21. المعلوف، فوزي، قصيدة بساط الريح (مجموعة ملحمة شعرية)، بيروت، دار صادر، 1958م، ص 63.

22. نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص 228-229.

23. إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، الطبعة التاسعة، بيروت، دار العلم للملايين، 1972م، ص 29.

وقلة النوم (التأمل والتهدج)، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس²⁴، فالزهد في الشعر المهجري ينطبق على هذا المفهوم السائد للزهد لدى المتصوفة.

الرياضة ومجاهدة النفس:

يأخذ السالك نفسه بعمل الرياضيات وضروب المجاهدات ترقيا يمكنه في النهاية من الوصول إلى درجة اليقين والعرفان؛ فالصوفي يقوم بتهديب النفس عن طريق الممارسة، وإخضاعها لأجل الامتثال والطاعة لله تعالى، لذلك رأينا شعراء المتصوفة يهدبون نفوسهم، وعلى سبيل المثال نجد هذه الملامح الصوفية لدى الشاعر المهجري نسيب عريضة في قصيدته "على طريق إرم" إذ يقول مخاطباً لنفسه:

هَلَّا رَجَعْتَ إِلَى الصَّوَابِ وَبَدَّلْتَ رَبِّكَ بِالْيَقِينِ
يا ويح عيش هل تطاق نزعات نفس لا تلين²⁵

فالشاعر لا يخضع لرغباته، وملذاته وشهوات نفسه، بل يلجأ إلى التعنيف بالنفس والتضييق عليها، وفي سبيل تسخير النفس للمجاهدة يلجأ إلى التحلي بالصبر فيوصي نفسه بالصبر والتحمل في الشدائد تسلياً لها ويقول في إحدى قصائده:

يا نَفْسُ صَبْرًا عَلَى الْبَلَايَا فَكُلُّ شَيْءٍ إِلَى زَوَالٍ²⁶

إن المجاهدة تؤلم الشاعر المهجري، ويعذبه الحرمان المادي، لكنها يحاول كبح ثورة النفس وتمرداها عن طريق المجاهدة والرياضة الروحية. كما يقول نسيب عريضة:

لماذا وقفتِ بخوفٍ وحيرةٍ أيا نفسُ عندَ الطريقِ العسيرةِ
ألا أمشي فإن الحياةَ قصيرةٌ ألا أمشي
مقرُّ الإلهِ بعيدٌ فسيري لكي تُدركي الله قبلَ النشورِ
فجدي ولا تسألني عن مصيري بعيشي²⁷

ربما تأصلت هذه الدعوة لدى شعراء المهجر منذ أن رحلوا عن أوطانهم وأحلوا في أراضيهم الجديدة التي جابهوا فيها الصعاب لذلك أحسوا بالوحدة والغربة وآثروا الصبر ولجؤا إلى الرضى والطمأنينة وما إلى ذلك.

التأمل في الوجود والكون:

التأمل في الوجود والكون لأجل الاستدلال على وجوده تعالى في الكون من أبعاد التصوف، ونظرية التأمل شائعة في الأدب المهجري خاصة لدى جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي. يوجد التأمل عند فوزي المعلوف من شعراء المهجر الجنوبي في مطولتيه المعنونتين "على بساط الريح"، و"شعلة العذاب"، وهاتان القصيدتان تعتبران من أروع النماذج الشعرية في الأدب العربي الحديث. كما يوجد التأمل بوفرة في قصيدة "بين الطفولة والشباب" لإلياس فرحات، وأما أشعار ميخائيل نعيمة فشعره كله من النوع التأملي تقريباً، وكذلك غلب على جبران خليل جبران في قصيدته "المواكب" النزعة التأملية، وهذا التأمل تعنتي بفلسفة الحياة²⁸.

الحب الصوفي:

يتمثل الحب الصوفي في الحب الإلهي والحب الكوني:

24 . المقدسي، أنيس، أمراء الشعر العربي، الطبعة السابعة عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، 1989م، ص 375.

25 . نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، الجزء الأول، بيروت، دار الحرية، 1973م. ص 87.

26 . نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص 83.

27 . نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص 60.

28 . قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، مؤلفون، 1971م، ص 356.

الحب الإلهي:

العشق الإلهي أو العشق الحقيقي في التصوف هو الحب الحقيقي. وقد حب المتصوفة الإله وحاولوا الوصول إليه ثم الفناء في ذاته تعالى، والتلذذ بنوره ومعرفته، وقد عبر الشعراء عن هذا العشق بحفاوة بالغة وسلكوا طرقه ودروبه. غير أن الوصول إلى هذا المعشوق – على حد تعبيرهم – ليست ببسيرة ولا بهسلة بل لا بد من الوصول إليها من مجاهدة ومكابدة عبر رحلة تصاعدية مستمرة. والشاعر المهجري رشيد أيوب حاول كثيرًا أن يسلك هذه الدروب، حتى سمي بالدرويش²⁹ لكثرة استخدامه لصور الدراويش إلى أن شكلت تلك الصور ظاهرة شعرية صوفية بارزة في إنتاجه الشعري ويرى نفسه رجلًا مغتربًا متباينًا عن بني جنسه يصعب على الناس فهمه، كما يقول:

وَقَفْنَا عِنْدَ مَرَأَةٍ	حَيَارَى مَا عَرَفْنَا
عَجِيبٌ فِي مَعَانِيهِ	غَرِيبٌ فِي مَزَايَاهُ
لَهُ سِرْوَالٌ جَوَابُ	غُبَارُ الدَّهْرِ غَشَاءُ
وَوَجْهٌ لَوْحَتُهُ الشَّمْسُ	سُ غَارَتْ فِيهِ عَيْنَاهُ
سَأَلْنَا النَّاسَ مِنْ هَذَا	فَقَالُوا يَعْلَمُ اللَّهُ
فَلَا نَدْرِي لِمَا فِيهِ	وَيَسْهُوُ إِنْ سَأَلْنَا
كَأَنَّ فِي صَدْرِهِ سِرٌّ	وَذَاكَ السِّرُّ يَنْهَاهُ
وَمِنْهُمْ قَالَ دَرَوِيْشٌ	غَرِيبٌ ضَاعَ
	مَأْوَاهُ ³⁰

ويرتحل هذا الشعر لأجل الوصول إلى المحبوب فيجوب الأقطار ويمتطي مطيته هائمًا سائحًا ضاربًا في الأرض، ولكن هل الوصول إلى الحقيقة المنشودة سهل وتحقيق الغاية يسير.

فحث المطايا وخاض البحار

ومرّت ليالي وكرّرت سنون ولم يرجع³¹

وهذا الطريق صعب وعور، يعاني القاصد من ضياع وتيه وشقاء وعذاب، وصعود وهبوط، وذهاب وإياب يقول الشاعر المهجري ميخائيل نعيمة:

نحن يا ابني عسكرٌ قد تاه في قفرٍ سحيقٍ
تَرَعَبُ العودَ ولا نذكُرُ من أين الطريقُ
فانتشرنا في وجهاتِ القفرِ نستجلي الأثر
نسألُ الشمسَ عن الدربِ ونستفتي الحجرُ
ريثما نلقَى مُنَانَا – ريثما نلقَى الطريقَ.³²

فالتريق ليس بسهل والسالك يحتاج إلى جنون للتوصل إلى المحبوب، وهذا يختلف عن الجنون العقلي، كما سئل بعض المتصوفة عن حقيقة الوصول، فقال: ذهب العقول³³. وقد عرف الشاعر القروي المهجري هذا الجنون الصوفي وعائشه وتلبسه وعبر عنه في أبياته التالية:

أرى كلَّ شيءٍ عكس ما تنظرونه وتكره نفسي كلَّ ما تعشقونه

²⁹ رشيد أيوب، ديوان أغاني الدراويش، ص 12، 14، 62، 110، نقلًا عن دراسة "الاتجاه الصوفي في شعر المهجر مكوناته وملامحه"، عبد الكريم، أ. م. سليمان، دراسة معدلة لرسالة الماجستير بعنوان: قضايا الإنسان في شعر المهاجر العربية، تم تقديمه في جامعة عين شمس، عام 2019م.

³⁰ رشيد أيوب، ديوان أغاني الدراويش، نيويورك، المطبعة السورية الأمريكية، 1982م. ص 12.

³¹ نفس الديوان، ص 62.

³² ميخائيل نعيمة، همس الجفون، الطبعة الثانية، بيروت، مكتبة صادر، 1952م. ص 46.

³³ السراج الطوسي، اللمع في التصوف، تحقيق طه عبد الباقي سرور، عبد الحليم محمود، القاهرة، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م، ص 287.

وذلك أمرٌ واضحٌ تعرفونه

فما هذَّ أو هزَّ الكلامَ عموداً³⁴

وبسبب النشوان الصوفي تغير للشاعر كل المقاييس والصحو.

الحب الكوني:

ومن الحب الكوني حب الطبيعة يرى الناقد أحمد قبش أن أدباء المهجر كلهم من أخلص أبناء الطبيعة وعشاقها، فهم عميقو الإحساس بها والحب لها والاتصال بها، وحب الطبيعة يتجدد بطريقته وروحه، ويمتزج حبها عندهم بلذة صوفية، ونشوته الروحية تترك في نفوسهم رنيناً حالماً، يقطر بالعدوبة والغبطة ويتعالي بالروح فوق أو هام العالم وفوق قيود المادة³⁵.

ومن ملامح الحب الكوني حب الغابة، فقد دعا جبران إلى عالم الغابة على أنه محل العالم الطبيعي في قصيدته "المواكب"، كما تمثل قصائد فوزي المعلوف في مطوله "بساط الريح وشعلة العذاب" وقصائد إيليا أبي ماضي في ديوانه "الجدول والخمائل" وأمين الريحاني في "ريحانياته" وجبران خليل جبران في "مواكبه" ظاهرة الاغتراب والعزلة والاتجاه إلى الغابة بغية العيش وحيداً منعزلاً، فقد اتخذوا الغابة مدينتهم الفاضلة التي تسودها الحياة المثالية والخالية من كل مظاهر السلبية ووجدوا مدينتهم الفاضلة في الغابة البعيدة عن كل الصراعات المادية كما نجد في قصيدة (الغابة المفقودة) لإيليا أبي ماضي:

الله في الغابة أيامنا
طورا علينا ظل أرواحنا
ما عابها إلا تلاشيها
وتارة نحصي أقاصيها
وإن مشينا فوق كئبانها
لاحت فشاقتنا أدانيها³⁶

الحب الإنساني أو النزعة الإنسانية:

الحب الإنساني أو النزعة الإنسانية من ملامح التصوف واتسع الشعر المهجري للحب المطلق لكل الوجود ولكل ما في الوجود ولرغبة الخير المطلقة لكل المخلوقات. ومن ثم تحول الشعور الإنساني عندهم إلى القمة، ومن أبرز دلائل هذا الحب الإنساني تعبير الشعراء عن النوازع الإنسانية وتصويرهم لحياة إنسانية شاملة مثلى.

فلسفة الوصول والفناء في الذات الإلهية:

عقيدة وحدة الوجود والفناء المطلق في الله هي حال الصوفي من الوصول والفناء في ذات المحبوب الإلهي، وهذه النظرية شائعة لدى الشعراء المهجريين، ويعد الصوفي ابن عربي مؤسس هذه المدرسة، أو الفكر في التاريخ الإسلامي، وعقيدة تناسخ الأرواح ثم حلولها في النهاية في الذات الإلهية من المعتقدات الصوفية السائدة لدى المذاهب والديانات الأخرى. وقد ظهرت ملامح الوصول والفناء في الذات الإلهية في قصائد المهجريين، خاصة في دواوين ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، يقول عبد الحكيم بلبع: "الإيمان بوحدة الوجود يمثل محوراً أساسياً في تراث نعيمة الأدبي عامّة"³⁷. ومن نماذج الأشعار المعنوية بفلسفة الوصول والفناء في ذات المحبوب الإلهي تتجلى في الأبيات التالية لميخائيل نعيمة:

كَجَلِّ اللَّهُمَّ عيني
بِشُاعٍ من ضيائك
كَيْ تراك

³⁴ الخوري، رشيد سليم، ديوان القروي، الجزء الأول، ص 423.

³⁵ قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 357.

³⁶ إيليا أبو ماضي، قصيدة الغابة المفقودة، ص 23.

³⁷ بلبع، عبد الحكيم، حركة التجديد في الشعر المهجري، ص 224.

في جميع الخلق في دود القبور
في نسور الجوّ، في موج البحار
في يد المحسن، في كفّ البخيل³⁸.

هنا لا يفصل الشاعر في عالمة بين الخالق ومخلوقاته، أو بين الذات الإلهية والعالم. وأما جبران خليل جبران فهو يعبر عن هذا المعتقد الصوفي في الأبيات التالية:

فَبِي مَنْ بَرَّانِي وَالَّذِي مَدَّ فُسْحَتِي وَبِي الْمَوْتُ وَالْمَتْوَى وَبِي الْبَعْثُ وَالنَّشْرُ
فَلَوْ لَمْ أَكُنْ حَيًّا لَمَّا كُنْتُ مَاتًا وَلَوْلَا مَرَامُ النَّفْسِ مِمَّا رَامَنِي الْقَبْرُ
وَلَمَّا سَأَلْتُ النَّفْسَ مَا الدَّهْرُ فَأَعِلَّ بِحَسَدٍ أَمَانِينَا أَجَابَتْ أَنَا الدَّهْرُ³⁹

كما يقول الشاعر المهجري:

عَيْنُ الْوُجُودِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي اتَّجَهَتْ هَذِي النَّفُوسُ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَاتِ
كُلُّ الْعَوَالِمِ أَعْضَاءُ مَرْدِدَةٌ فِيهَا الْحَيَاةُ عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَاتِ
وَمَا الْأَثِيرُ وَ مَا الْأَجْرَامُ سَابِحَةٌ فِيهِ سَوَى الدَّمِ يَغْلِي بِالْكَرْبَاتِ
مَا كَانَ قَطُّ عَنِ الْأَشْيَاءِ مُنْفَرِدًا بَلْ هُنَّ فِيهِ لُصُوقُ الذَّاتِ بِالذَّاتِ
تَعَاشَقَ الْكُلُّ مِنْ أَعْلَى الشَّمْسِ إِلَى أَدْنَى الرِّمَالِ إِلَى أَخْفَى الدَّرِيَرَاتِ⁴⁰

هنا نرى الاتحاد بين الكون، والشاعر المهجري الآخر شكر الله الجر يرى الذات الإلهية في كل شيء وهو عقيدة العلاج:

وَعَلَامَ الْقَوْلِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ حُجِبَ عَنَا ؟
هُوَ فِي النَّهْرِ، وَفِي الْحَقْلِ، وَفِي الْعُصْنِ تَنْتَى
هُوَ فِي الْبَحْرِ، وَفِي الرِّيحِ، وَفِي الْعَابَةِ عَنَى
هُوَ فِي اللَّيْلِ، وَفِي الْفَجْرِ إِذَا فَتَحَتْ جَفْنَا
هُوَ فِي الْبَرْقِ، وَفِي الرَّعْدِ إِذَا أَرْهَفَتْ أَدْنَا
هُوَ فِي الْأَكْوَانِ مُدَّ كَمَا نَتَّ وَفِينَا مُنْذُ كُنَّا⁴¹

هنا يرى الشاعر أن الذات الإلهية موجودة في كل شيء، وهو دليل على الاعتقاد بوحدة الوجود والفناء في الذات الإلهية.

الرموز الصوفية:

استخدم الشعراء المهجريون عددًا من الرموز الصوفية، منها رمز الخمر، ورمز الضوء، ورمز النار وغيرها من الرموز على النحو التالي:

رمز النار: النار تعتبر رمز من رموز التجلي في المفردات الصوفية، وقد استخدمها الصوفي ابن فارض في ديوانه في السياق الصوفي⁴². والشاعر المهجري إيليا أبو ماضي استخدم هذه الكلمة بالإضافة إلى "القرى" في معنى الذات الإلهية، كما نرى في الأبيات التالية:

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَيْكَ يَا نَارَ الْقَرَى أَنَا فِي الْحَضِيضِ وَأَنْتِ فِي الْجَوْرَاءِ
لِي أَلْفٌ بَاصِرٌ تَحْنُ كَمَا تَرَى لَكِنْ دُونَكَ أَلْفٌ غَطَاءِ
لَوْ مِنْ تَرَى مَرَّقَتْهَا بِيَدِ النَّرَى لَكِنَّهَا سَجَفَتْ مِنْ الْأَضْوَاءِ

³⁸ ميخائيل نعيمة، همس الجفون، ص 35.

³⁹ جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص 281.

⁴⁰ الخوري، رشيد سليم، ديوان القروي، الجزء الثاني، ص 965.

⁴¹ الجر، شكر الله، ديوان زنايق الفجر، ريودي جانيرو، الأرجنتين، 1945م، ص 90.

⁴² عمر بن الفارض، ديوان ابن الفارض، ص 102.

ماذا شربت فمت؟ قال: ديمائي⁴³

سألت قلبي إذ رأى فتَحَيَّرَا

رمز الضوء البعيد:

استخدم الشاعر رشيد أيوب رمز الضوء البعيد في معنى نور الذات الإلهية الأزلي، فيقول:

هي تذكارات شاعر
عما في الدنيا شريد

ومضى و في الأمر حائر
يقود الضوء البعيد⁴⁴

هنا يفيد "الضوء البعيد" معنى النور الأزلي لله تعالى وفقاً للمفردات الصوفية.

رمز الخمر: يستخدم الصوفية رمز "الخمر" ليفيد معنى المحبة الإلهية، وقد استخد الشاعر نسيب عريضة

كلمة الخمر والكؤوس لتدل على المحبة الإلهية، كما نرى في الأبيات التالية:

كؤوس الهوى دارت علينا بليلة
وقد أترعت من خمر روح المحبة⁴⁵

فقد شرب الشاعر الخمر وسكر به لكنه ليس الخمر الذي يخامر لب الإنسان وإنما هو خمر الحب الإلهي الذي جعله غافلاً عن الجميع إلا ذاته سبحانه وتعالى. والشاعر أبو الفضل الوليد أيضاً استخدم هذا الرمز في مطولته في قصيدة "الرؤية النبوية" في المعنى نفسه⁴⁶.

خاتمة القول والاستنتاج:

هذا قليل من كثير في التصوف وملامحه في الشعر المهجري ومن خلال استقراء وتتبع القيم

الصوفية وملامحها في قصائد الشعراء المهجريين، توصل الباحث إلى بعض النتائج منها ما يلي:

أن المتصوفة والشعراء على حد سواء قاموا بتوظيف المفردات الصوفية في قصائدهم، وأنهم عبروا عن تجاربهم العرفانية وأحوالهم الذوقية ومجاهداتهم النفسية ومقاماتهم الباطنية من خلال التعبير عن عواطفهم. فنلاحظ هذه الملامح في شعراء المهجر التي أدت إلى اتخاذ الصوفية في حياتهم ووتصويرها في أشعارهم.

وأن التصوف هو ظاهرة تم تواجدها منذ سحيق الأباد في كل عصر ومصر.

وأنه حصلت وتطورات في مفهوم التصوف، ومدلولاته، وأنواعه، وأن الفكر الصوفي وجد في الديانات والمذاهب الأخرى، وأن معاني التصوف تنوعت حسب اختلاف ديانات المتصوفة ومذاهبهم. ومن ثم ظهرت أنواع من التصوف حسب الانتماء الديني، والمذهبي؛ فمثلاً التصوف السني، والتصوف الشيعي، والتصوف الإسلامي، والتصوف غير الإسلامي.

الأدب الصوفي هو البوابة السحرية التي عبر المتصوفة منها أجادوا وأبدعوا من خلالها. هو الأدب الذي أنتجه المتصوفة والزهاد بمختلف اتجاهاته الدينية والفلسفية.

ومن ملامح التصوف في الشعر المهجري: الزهد، والمودة والولاء، والأخلاق، والسلوك، والطريق والرحلة، والاغتراب والانعزال، والوحدة، ومجاهدة النفس، والصراع بين العقل والقلب، وفلسفة الوصول والفناء، وحدة الوجود، والشهود، والرضى والطمانينة القلبية، والمناجات والابتهالات، والرموز الصوفية مثل النار، والخمر، والمرأة، والعشق الإلهي، والعشق الكوني، والحب، وحب الطبيعة ورموزها مثل الغابة، والتغني بجمالها، والارتباط بالنفس، والتأمل، والحزن، والنزعة الإنسانية، والروحانية، ورفض المادة، وتكشف الحياة، وتمجيد الروح والازدراء بالجسد وما إلى ذلك.

43 . إيليا أبو ماضي، قصيدة الجداول، ص 94.

44 . رشيد أيوب، ديوان أغاني الدرويش، ص 112

45 . نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، ص 37.

46 . أبو الفضل الوليد، ديوان أبي الفضل الوليد، ص 364، نقلا عن: حلمي محمد مصطفى، ابن الفارض والحب الإلهي، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ب.ت.

وقد تناول هذه الملامح معظم الشعراء المهجريين ببعض الفوارق في الكمية، وعلى رأسهم نسيب عريضة، وجبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضي، ورشيد أيوب، وأبو الفضل الوليد، وميخائيل نعيمة، ورشيد سليم الخوري، وشكر الله الجر. ويقترح الباحث إجراء البحوث الجامعية لدراسة النزعات الصوفية في الأدب العربي؛ نظمه وشعره، في الأدب المهجري وغير المهجري، وعقد المؤتمرات والندوات، لتقييم هذا النوع من الأدب.

المصادر والمراجع

1. أبو الفضل الوليد ديوان أبي الفضل الوليد، قطر، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م.
2. إيليا أبو ماضي ديوان أبو ماضي، ديوان الجداول، الطبعة التاسعة، بيروت، دار العلم للملايين، 1972م
3. جبران خليل جبران البدائع والطرائف، القاهرة، دار الفرجاني، 1984م
4. الجر، شكر الله ديوان زنايق الفجر، ريودي جانيرو، الأرجنتين، 1945م
5. جماعة من المؤلفين موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، الفصل الثاني: التعريف بالصوفية والتصوف لغة واصطلاحاً، المبحث الثالث: معنى الصوفية والتصوف اصطلاحاً، النسخة الإلكترونية، المنشورة على موقع المكتبة الشاملة، ج 6، ص 449، من خلال الرابط التالي: (<https://shamela.ws/book/32150/2950>)، تاريخ الاستفادة: 2023 /09 /27م.
6. حسان، عبد الحكيم التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، (مطبعة الرسالة)، 1954م.
7. حلمي محمد ابن الفارض والحب الإلهي، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ب.ت. مصطفى
8. حنفي، عبد المنعم المعجم الصوفي، القاهرة، دار الرشد، 1997م.
9. خفاجي، عبد المنعم دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، الجزء الأول، بيروت، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1900م.
10. الخوري، رشيد ديوان القروي، الجزء الأول، بيروت، دار الحرية، 1973م.
11. رشيد أيوب الأعمال الشعرية الكاملة، (ديوان الأيوبيات)، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018م.
12. رشيد أيوب ديوان أغاني الدراويش، نيويورك، المطبعة السورية الأمريكية، 1982م
13. السراج الطوسي اللمع في التصوف، تحقيق طه عبد الباقي سرور، عبد الحلیم محمود، القاهرة، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960م
14. عبد الكريم، أ. م. الاتجاه الصوفي في شعر المهجر مكوناته وملامحه، دراسة معدلة لرسالة الماجستير بعنوان: قضايا الإنسان في شعر المهاجر العربية، تم تقديمه في جامعة عين شمس، عام 2019م.
15. قيش، أحمد تاريخ الشعر العربي الحديث، مؤلفون، 1971م.

16. القشيري، عبد الرسالة القشيرية، تحقيق الدكتور عبد الحلیم محمد، والدكتور محمود بن الكريم الشرف، دار المعارف، 1995م.
17. كوكن، يوسف أعلام النثر والشعر في العربي الحديث، الجزء الثاني، دار حافظة 1980م.
18. المعلوف، فوزي قصيدة بساط الريح (مجموعة ملحمة شعرية)، بيروت، دار صادر، 1958م
19. المقدسي، أنيس أمراء الشعر العربي، الطبعة السابعة عشرة، بيروت، دار العلم للميلان، 1989م،
20. ميخائيل نعيمة همس الجفون، الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسسة نوفل، 1988م.
21. نسيب عريضة ديوان الأرواح الحائرة، بيروت، دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018م.